نشيد الظلام

أحمد دحبور

آمل أن يكون هـذا النشيد بـراءةَ انتساب دائمـة إلى «الآداب» بانطلاقتها الجديدة.. وكلِّي ثقة أنَّنا عدنا، والعَوْد ـ من حسن حظِّي ـ يحمل اسمي...

الظلام يمجِّدُ أسماءه ويجدِّدُ ألاَّ ترى
والظلامُ يبيع الكلامْ
يقطفُ السِّعْرَ مِنْ صُلْبِ روحكَ
حتَّى تقولَ، بما تشتري، ما تشاءُ،
دفعتَ الكثير.. وعند الحساب ترى أنَّك المُشْترىٰ
الظلامُ المُشيَّدُ يلبس بيتكَ،
لا تشعلِ النورَ،
فالكهرباءُ ستهدي الظلامَ إلى كلّ ركنٍ من البيتِ،
من مقبضِ البابِ حتَّى ملائكة رفرفَتْ في المنامْ
الظلام.. الظلامْ
هل تفقَّدْتَ كفَّيْكَ؟ عينيْكَ؟ صوتكَ؟
هل كان حَبُّ الظلام هنالك مِنْ أوَّلٍ؟
أم تسرَّبَ من مِخْملٍ مثقلٍ بالغبار الخفيِّ؟
ـ نعمتَ بجاهِ الغنيِّ
وأطلقتَ عقْبانَ صوتك باسم الفقير الشقيِّ ـ
فقلْ أيّها المرتشي المنتشي بالصّراخ الثمِلْ:
هلْ حسبتَ الخسارة والربح في جدول الضرْبِ؟
أوْسَعْتَهم خُطَباً من سبابٍ،
وأوْدَوْا بكلّ الإبلْ
الظلام عليكْ
والظلام الذي تركَ الرفْضَ أُهْبِيَةً في يديكْ
شدَّكَ الآن من أُذُنيْكْ
قد تدلَّلْتَ حيناً من الدهرِ،
أحرقتَ كلَّ الغزاة وكلَّ الطغاةِ،
بما كان يكفي ليُرفَعَ نَخْبُكَ،
ـ نخْبُكَ نخْبُكَ ـ
والآن حَلَّ الظلامْ
ليس في الأفْق فاصلةٌ بين ذاك الحلال وهذا الحرامْ
يكسبون وأنت تُوقِّعُ،
والمُرُّ أن تتباهى بما يتناهى إلى ما تماهى مع الموتِ،
هل فَقْدُكَ الروحَ مكرمة أم زؤامْ؟
هل تهدِّدُ، والنارُ هذا الهشيمُ المبلَّلُ؟
أمْ تتأمَّلُ ماءَ السماء وتأمل أن يشتعِلْ؟
لستَ ناراً لتُحْرِقَ،
ماءً لتُغْرِقَ،
لكنَّك النَّفْسُ مكسورةً.. فامتثِلْ
الأمام وَرا
فارجع القهقرى
والظلام يريدُكَ مَيْتاً، فمتْ شاكراً
ثمَّ قمْ.. لا لمجد القيامةِ..
بل لتسديد ما أسْلَفَتْكَ القُرى!
الظلامُ عليك.. على قاتليك السلامْ
وَلأنتَ بهذا سعيدٌ،
وإلاّ فكيف سترقصُ إن جاءَ عَمُّ الظلامْ؟
من أيْنَ وأيْنْ؟
وصلوا، دخلوا، اكتملوا فنقصْتُ
سحبوا من تحتي الأرضَ فَغُصْتُ

وأتوا بكشوفٍ من زمنٍ محذوفٍ يسألني تسديد الدَّيْنْ

والدَّيْنُ ثقيلْ

فأنا لم أنكرْ يوماً أنَّ الفجرَ جميلْ

أني قد أغويتُ امرأةً،

والقبلة مفتاحي لصباحي،

أنَّ الشِّعْرَ سلاحي في الإغواءِ،

ومن أسمائي طفلُ النورِ. .

وهبَّتْ رائحةٌ للموسيقى، فَرقَصْتُ

من أين وأينْ؟

لم أحرق مكتبة لكنّي حاكمتُ الأسلافْ

جدَّفْتُ، فلم آخذْ بنصائح جدّي والعرّافْ

وكسرتُ البابَ. .

دَلَفْتُ إلى خطإٍ لاتغفره الأشباحُ،

وذلك أنّي لستُ أخافْ

وأسفُّ تراب الأرض لأبرأ من قِصَرِ المتطوِّلِ أو قَصْرِ السيّافْ

وأريدُ الغابةَ كاملةً

لاتغْني صورتها عن أحمرها في أخضرها،

لايُغْني عِطْرٌ في الدنيا عن هَبَّةِ زعترها،

لم تُغْنِ صغاري أشعاري عن منظرها،

وأريدُ الغابةَ كاملةً،

وأريدُ يديْنْ

لكنْ من أيْنْ؟

وصلوا. .

دخلوا ليقاضوا ما أسْلفْتُ،

وهذا وَقْتُ سداد الدَّيْنْ

والظلامُ الذي يكتمُ الصوتَ والأنبياءْ

يرفعُ الموتَ زُلفى إلى طوطم العصر باسم الضياءْ

فامتثِلْ، أو تخيَّرْ قصاصكَ،

يقتلْك، بالكاتم، الشبحُ المختفي،

أو يجرِّدْكَ من نَفْسِكَ العسكريُّ

في الندامة كلّ السلامة، فاندمْ تَنلْ ما تشاءْ

واطَّرِحْ زهرة النور ناحيةً،

أو أزِحْ عن مساحة عينيْكَ هذا الفضاءْ

بين موتٍ و موتٍ تقدَّمْ لنختمَ أنَّكَ حيٌّ

وهنا جَنَّةٌ وسْعُها المصرف المركزيُّ

قلتُ: لا. .

إنَّ لي جنّةً لاتُحَدُّ،

وإن كان، بَعْدُ، ليَ الحقُّ في أن أشاءَ انتحاري،

فشكراً. . أنا لم أشأْ أن أشاءْ

لايطاوعني الحبر حتَّى أوقِّعَ،

لاأرضَ تحتي لأرجعَ منها إلى مُسْتَقرِّ الظلامِ. .

أنا مَحْضُ عَبَّاد شمسٍ

فلا هؤلاء يضيئون روحي ولا هؤلاءْ

عمّان/السبت ١٥/٧/١٩٩٢